مظاهر الإبداع في مدائح أبي تمام

الدكتورمحمد موسوي*
الدكتور شاكر العامري**

الملخّص

قد كان أبو تمام من أبرز الشعراء المادحين، حيث أبدى وأعاد في المدح وسلك فيه طريقاً يختلف عمّا كان يسلكه الجاهليون والإسلاميون. نشأ أبو تمام في دمشق يعمل عند حائك ثم انتقل إلى حمص حيث نظم قصائده الأولى ووصل إلى المعتصم وصار شاعره الخاص، وقد كان قبل ذلك مطروداً محروماً من قبل الخلفاء الذين كانوا قبل المعتصم. يمتاز أبو تمّام بما في مدحه من منطق و اتساع أفكار وحكم وأمثال سائرة مبثوثة في تضاعيف أبياته، وبما فيه من عصبية عربية تحمله على الإسراف في ذكر مناقب العرب وتزيين الحياة البدوية ومساكن الأعراب وقبائلهم.

فقد استطاع أبو تمام أن يحوّل قصائده التي مدح بها المعتصم واصفاً شجاعته وشجاعة جنوده، استطاع أن يحوّلها إلى ملاحم نابضة بالحياة والحركة لما بثّ في جماداتها من روح الحياة فجعلها متحرّكة ناطقة. وكما كان يبالغ في مدحه كان يبالغ في وصفه كذلك، فقد كان وصّافاً ماهراً، بل رسّاماً مصوّراً يعتني بلوحاته أيّما اعتناء وهو لا ينسى في رسمه للطبيعة ممدوحه رابطاً بينه وبين الطبيعة ليمنّ في نهاية المطاف على ممدوحه، بشكل غير مباشر طبعاً، أنّه مدحه بأفضل ما يكون من الأشعار وليتخذ من ذلك ذريعة ليمدح شعره ويُعلي من شأنه أكثر من إعلاء شأن الممدوح.

كلمات مفتاحية: أبو تمام، المدح، المعتصم، البديع.

---

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة سمنان، إيران.
** أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة سمنان، إيران.

تاريخ الوصول: ١٣٨٩/١١/١٢ تاريخ القبول: ١٣٩٠/٣/٢١

المقدمة

نظم الشعراء في العصر العباسي في الموضوعات القديمة من المدح وغيره كما في الأعصر الماضية ولكنهم لاءموا موضوعاتهم مع حياتهم الجديدة المتحضّرة. وقد صوّروا، في المدح، أنواعاً من الصور الحيّة الناطقة للصفات التي استخدموها في شعرهم كالكرم والسماحة والعلم والحزم والمروءة وشرف النفس وعلوّ الهمّة والشجاعة وجسّموها في الممدوحين تجسيماً قويّاً. وبذلك ظلّت المدحة تبثّ، في الأمة، التربية الخلقية مع الصفات الفاضلة والمكارم النفسية. وفي مدائحهم، نجد أيضاً الأحداث السياسية التي وقعت في عصورهم من االفتن والثورات والحروب الداخلية والخارجية على شكل وثائق تاريخية مهمّة. ونجدهم، مع ذلك، يجنحون، في مدائحهم، إلى الأساليب القديمة، محاولين بذلك أن يُظهروا في أشعارهم الاستحكام والمتانة الشعرية التي وجدت في تلك الأساليب. وقد كان أبو تمام أبرز أولئک الشعراء، حيث أبدى وأعاد في المدح وسلك فيه طريقاً يختلف عمّا كان يسلكه الجاهليون والإسلاميون.

هو حبيب بن أوس الطائي صليبة[١]. ولد بقرية يقال لها جاسم سنة١٨٠هـ (٧٩٦م)[٢]. وكان أبوه رومياً مسيحياً اعتنق الاسلام وانتسب إلى قبيلة طيء ولهذا لُقّب بالطائي، وبعض يرفع نسبه إلى طيء ويزعم أنّ والده نصرانيّ من أهل جاسم يقال له تدوس العطار فلما أسلم غيّر اسمه فصار أوساً[٣]. وقال بعض العلماء: خرج من قبيلة طيء، ثلاثة، كلّ واحد منهم مجيد في بابه: حاتم الطائي في جوده و داود بن نصير الطائي في زهده و أبو تمّام، حبيب بن أوس، في شعره[٤].

١- الصليبة: الخالص النسب (المعجم الوسيط، مادة صلب).

٢- أبو بكر الصولي، أخبار أبي تمام.

٣- بطرس البستاني، أدباء العرب.

٤- ابن خلكان، معجم الأدباء، ج٢، ص١٤.

نشأ أبو تمام في دمشق يعمل عند حائك ثم انتقل إلى حمص حيث نظم قصائده الأولى وحيث صادف الشاعر ديك الجن[١] وأخذ عنه بعض أساليبه. أخذ الشعر يتدفّق على لسان أبي تمّام، وبعد مدة وصل إلى المعتصم وصار شاعره الخاص، وقد كان قبل ذلك مطروداً محروماً من قبل الخلفاء الذين كانوا قبل المعتصم. وكان أبو تمام يشارك المعتصم في حروبه ليصف ميادين الحرب. وآنذاك ألّف ديوان الحماسة الذي هو عبارة عن مختارات جمعها من أشعار العرب العَرْباء ورتبه على عشرة أبواب أهمّها: الحماسة، المراثي، الأدب، النسيب، الهجاء، الصفات، المُلَح، مذمّة النساء.

توفي أبو تمّام بالموصل سنةَ إحدى و ثلاثين ومائتين وقيل إنه توفّي في ذي القعدة وقيل في جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين وقيل تسع وعشرين ومائتين وقيل في المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائتين[٢].

أهمية البحث والهدف منه

لاشكّ أنّ الكشف عن مميزات النصوص الشعرية وخصائصها، بشكل عام، يحتلّ جانباً مهمّاً من الدراسات الأدبية. وما يهدف هذا البحث إلى تحقيقه لا يخرج عن تلك الدئرة، بل يحتلّ المركز منها، إذ إنّ الأفذاذ في الأدب العربي الذين كانوا قدوة غيرهم من الأدباء ليسوا بالكثيرين. وإنّ الابتكارات والإبداعات التي نراها في مدح أبي تمّام هي مما يميّز شعره من شعر من عاصره ولذلك نرى من جاء بعده يحذون حذوه في مدائحه.

١- ديك الجن، هو عبد السلام بن رغبان، اشتهر بلقبه ديك الجن. ولد سنة١٦١ للهجرة في مدينة حمص، وهو من شعراء الدولة العباسية وكان يتشيع تشيعاً حسناً وله مراث في الحسين رضي الله عنه و قد ضاع أكثر شعره ولم يبق منه إلاّ القليل (انظر في ترجمة ديك الجن وأخباره: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣٤، ص ١٨٤).

٢- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص١٧.

منهج البحث

المنهج الذي اتبعه البحث هو المنهج الوصفي التحليلي، حيث يتمّ استقراء النصوص الأدبية وتحليلها وصولاً إلى استخراج ما يصبّ في هدف البحث منها، كما تتمّ الاستعانة بالنصوص شواهد على صحّة الاستنتاج والاستخلاص.

أبو تمّام في مدحه

يمتاز أبو تمّام بما في مدحه من منطق و اتساع أفكار وحكم وأمثال سائرة مبثوثة في تضاعيف أبياته، وبما فيه من عصبية عربية تحمله على الإسراف في ذكر مناقب العرب وتزيين الحياة البدوية ومساكن الأعراب وقبائلهم وشعرائهم.

قال أبوالفتح بن الأثير في كتابه المثل السائر يصف الثلاثة: (أبا تمّام والبحتري والمتنبي): «وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر و عُزّاه و مناته الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين وفصاحة القدماء وجمعت بين الأمثال السائرة وكلمة الحكماء. أمّا أبو تمّام فربّ معانٍ و صيقل ألباب وأذهان وقد شهد له بكلّ معنى مبتكر لم يمش فيه على أثر فهو غير مدافع عن مقام الإغراب الذي يبرز فيه على الأضراب.....»[١].

الملحمة في مدائح أبي تمام

كان أبو تمام في شعره يتشدّد في اختيار الألفاظ وكان حريصاً على الروابط بينها وما يمكن أن تخلقه من الصور الشعرية الجميلة المعبّرة. ومن ذلك أشعاره التي يصف فيها حروب المعتصم بصور رائعة متحرّكة أمام عيون القراء لشعره فكأنّهم أمام فلم سينمائيّ أو مشاهد حيّة ناطقة. يقول من قصيدة يمدح فيها المعتصم: [الطويل]

١- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج١، ص٧٢.

غدا المُلكُ معمورَ الحرَا والمنازلِ مُنورَّ وَحْفِ الروضِ عذبَ المناهلِ
بمعتصمٍ باللهِ أصبحَ ملجأً ومعتصَماً حرزاً لكلّ مُوائلِ

... إلى أن يقول:

تراهُ إلى الهيجاءِ أوّلَ راكبٍ وتحتَ صبيرِ الموت أوّلَ نازلِ
وقد ظُلِّلَتْ عقبانُ أعلامه ضحىً بعقبانِ طيرٍ في الدماءِ نواهلِ[١]

فإنّنا نرى هنا لون الملحمة، حيث يقول إنّ المعتصم هو مأوى لكلّ من اتّجه إليه، لأنه مقدام في الحروب وهو لا يخاف من الموت في هذه الميادين المخيفة ويصف جنوده بالعقبان الكاسرة في الشجاعة وسرعه القتل وإنّ طيور السماء تظلّلهم وتطير فوق رؤوسهم طمعاً في ما ستطعمه من لحوم الأعداء وجثث قتلاهم التي سيتركونها في أرض المعركة مجبورين لانشغالهم عنها بالهروب. وفي القصيدة المذكورة كثير من هذه الموضوعات التي استطاع الشاعر وصفها بشكل جيد مصوّراً وقائع النزال مبالغاً في أوصافه وصوره المرسومة، فترى الموت قد خيّم على ساحة المعركة وألقى بجرانه وكلكله فيها فإذا هو سحابة بيضاء تظلّل أعداء المعتصم فقط وليخرج منها جنوده كأنّهم الطيور الكواسر التي تنقضّ على فرائسها من الجوّ وليتحوّل مدحه إلى ملحمة عسكرية رائعة. وقد أشار أبو تمام في هذه القطعة إلى صفة مهمة من صفات القائد هي كونه أول من يدخل ميدان الحرب، فهو لا يقف جانباً يدفع جنوده إلى الحمام، بل يقدمهم في جميع مواقف

١- أبو تمام، ديوان، شرح الخطيب التبريزي، ج٢، ص٤٠- ٤١. وقوله الحرا والمنازل، الحرا: الحمى والناحية. قال في لسان العرب، مادة (حري): "والحَراة: الساحةُ والعَقْوَةُ والناحيةُ، وكذلك الحَرَا، مقصور. يقال: اذْهَبْ فلا أَرَيَنَّكَ بحَرايَ وحَرَاتِي. ويقال: لا تَطُرْ حَرَانا أَي لا تَقْرَبْ ما حولنا". والنَّوْر الزهر الأبيض واحدته نَوْرَة (ج) أنوار، ومنوّر اسم مفعول من تفعيل، أي ظهر زهره. والوحف من النبات والشعر والجناح الواحف، والواحف هو ما غزر وأثبت أصوله واسود ومن الجناح الكثير الريش. وقوله: مُوائل اسم فاعل مزيد من وأل أو وئل بمعنى اللاجئ. قال في لسان العرب: "المَوْئل المَنْجَى وهو المَلْجأُ، والعرب تقول: إنه لَيُوائل إلى موضعه يريدون يذهب إلى موضعه وحرزه". وقوله: صبير الموت يعني سحابته وظلّه. قال في اللسان:"والصَّبِيرُ: السحاب الأَبيض الذي يصبرُ بعضه فوق بعض درجاً".

القتال ويصبر على أهوال النزال. ونجد هذا الموضوع في هذه الأبيات أيضاً: [الطويل]

أُلاك بنو الأحساب لــولا فعالــهم درجن فلــم يــوجد لمكــرمة عَقْــبُ
لهم يومَ ذي قارٍ مضى وهو مفرد وحيدٌ من الأشباه لــيس لــه صحْــبُ
بـــه علِمتْ صُهب الأعاجــم أنـــه بـــه أَعربتْ عن ذات أنفسها الــعُرْبُ
هو المَشهد الفصل الذي ما نجا به لكسرى بن كسرى لا سنامٌ و لا صُلْبُ[١]

يتحدّث أبو تمام في هذه الأبيات عن العرب ويبالغ في مدحهم فيصفهم بأنّهم ذوو أمجاد وشرف ثابت في آبائهم ولهم أفعال شريفة لولا انتشارها لما كان هناك ذكر لمكرمة، ثمّ يرسم الشاعر صورة ملحمية وصف فيها يوم ذي قار المشهور الذي انتصر فيه خالد بن يزيد الشيباني في الحرب التي قادها ضد الفرس، وهو مضى ولن يتكرر ويعتبر ذلك اليوم هو الذي يبيّن أحسن بيان حقيقة العرب وقوّتهم، وهو اليوم الفاصل والقاطع الذي لم يُبقِ لكسرى لاعدّة ولا عديداً.وقوله:(صهب الأعاجم) هو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها.

المدح والتّنجيم

قال أبو تمّام يمدح المعتصم ويوثّق فتحه مدينة عمورية: [البسيط]

السّيــفُ أصــدَقُ إنبــاءً مِن الكُتُبِ في حدّهِ الحدُّ بينَ الــجِدّ واللــعبِ
بيضُ الصّفائحِ لا سودُ الصحائفِ في متونــهنّ جلاءُ الشــكِّ والرّيــبِ

١- أبو تمام، ديوان، ج١، ص ١٠٦. "والحَسَبُ: الكَرَمُ. والحَسَبُ: الشَّرَفُ الثابتُ في الآباءِ، وقيل: هو الشَّرَفُ في الفِعْل". (اللسان) وقوله: درجن أي مشين. قال في اللسان: "يقال للصبي إذا دَبَّ وأَخذ في الحركة: دَرَجَ. ودَرَج الشيخ والصبي يَدْرُجُ دَرْجاً ودَرَجاناً ودَرِيجاً، فهو دارج: مَشَيا مَشْياً ضعيفاً ودَبَّا". ومضيّ جمع ماضٍ، صفة للسيف المحذوف، أي القاطع. وصُهب جمع الأصهب، وهو الأشقر البشرة. وأعرب عن: عبّر عن وبيّنت وأفصحت عن. وقوله: لا سنام ولا صلب، السنام هو ما فوق ظهر البعير والناقة، وهو هنا كناية عن كل ما يُركب، والصلب هو فقار الظهر، ويقال هو من صلب فلان من ذريته... (ج) أصلب و أصلاب (انظر: المعجم الوسيط).

فتحُ الفتوح، تعالـــى أن يُـــحيطَ بـــه نظمٌ من الشّعرِ أو نثرٌ من الخُطَبِ
يـــا يـــومَ وقعةِ عمّوريـــةَ انصرفتْ عنك المُني حُفّلاً مَعسولة الـــحَلَبِ[١]

فالكتب التي يذكرها في البيت الأول معتبراً السيف أصدق منها هي كتب المنجّمين الذين لم يصدقوا في ادّعاهم، بينما أثبت الواقع عكسها وانتصر المعتصم في حربه بقوة جنوده وحدّة سيوفهم.

ويقول في موضع آخر من القصيدة نفسها، حكايةً عن المنجّمين:

وخوّفوا النـــاسَ من دَهياءَ مظلمةٍ إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذو الذنَبِ
وصيّروا الأبْرُجَ العُلـــيا مُرَتِّـــبَةً ما كانَ مُنقَلباً منها أو غيرَ مُنقلِبِ
يَقضون بالأمر عنها، وهي غافلةٌ ما دارَ في فَلَكٍ، منها، وفي قُطُبِ[٢]

يقول إن أولئك المنجمين قد أخافوا الناس بسبب ظهور مذنّب هالي في تلك السنة التي أراد فيها المعتصم أن يغزو عمورية من أن حادثة عظيمة وكارثة جليلة سوداء سوف تقع لا محالة وهذا المذنّب من علاماتها. وإن أولئك المنجمـــين يعتقـــدون أن الأبراج هي التي تتحكم بمصير العالم وتسّيره. وبروج السماء اثنا عشـــر؛ أربعـــة منقلبة، وأربعة ثابتة، وأربعة تسمى ذوات الجَسَدين، وهي صور نجوم فيها مـــدار السيارات. كما أنّ أولئك المنجمين قد جعلوا أنفسهم ناطقين باسم تلك النجوم وهـــي في الواقع بريئة مما يدّعونه لها من التحكم بمصير العالم والناس، فهي لاوعي لهـــا ولا فهم، وهذا الأمر يصدق على كافة الكواكب، سواء السيارة التي تدور في فلـــك محدد، أو الثابتة التي لا تتغير درجة رؤيتها من الأرض كالنجم القطبي.

١- أبو تمام، ديوان، ج١، ص٣٢. والحُفّل جمع الحافل والحافلة، المجتمع أو المجموع. وقوله: معسولة الحلب، مخلوطة بالعسل، والحلب العاقبة والحاصل والنتيجة وهو كناية عن النتائج الطيبة.

٢- أبو تمام، ديوان، شرح الخطيب التبريزي، ج١، ص١٧. دهياء: الداهية؛ الحادث العظيم . الكوكب الغربي ذو الذنب: هو الكوكب المذنبّ الذي ظهر في السنة التي أراد المعتصم أن يغزو فيها فتشاءم الناس، وهو ما يعرف اليوم باسم مذنبّ هالي. الأبرج: جمع البرج، وهو الفلك الذي هو مسير الكواكب. مرتبة: ترتّب مصير العالم.

ففي هذه الملحمة يذكر وقعة عمورية وقد أشار فيها أيضا إلى التنجيم الذي كان من علوم عصره وقد قارن بين السلاح وبين كتب المنجمين لأن التنجيم في ذاك العصر من العلوم المترقية التي كان الخلفاء وكثير من كبار الدولة يعتمدونها وبلغ هذا العلم من الرشد حتي ترجمت كثير من الكتب التي كتبت في هذا العصر على يدالمسلمين إلى اللاتينية و في إسبانيا خصوصا و أثّر ذلك في رقيّ و تطوّر العلوم في أروبا المسيحية كثيراً[١].

إنّ أبا تمام ينادي الأشياء المختلفة ويتكلم معها بخيال معجب شعري، كندائه حرب عمورية، في الأبيات المذكورة أعلاه، حيث يقول: «يا يوم وقعة عمورية...»، فقد اعتبر (يوم الحرب) إنساناً يناديه على سبيل الاستعارة بالكناية. أو يقول إنّ السيف يتكلّم بصدق، فيقول: «السيف أصدق إنباءً من الكتب»، فقد اعتبر (السيف) إنساناً على سبيل الاستعارة بالكناية. وهو يؤمن بتفوّق السيف على الكتب مقارناً بينه وبين علم التنجيم فيهزأ بما يذكره المنجمون من أيام السّعد وأيام النّحس وما يذهب إليه المنجّمون من تقسيم الأبراج إلى ثابتة و منقلبة و تحكّمها في طوالع الناس و الأحداث وهو يعرضها عرضاً طريفاً، إذ تدور في أوعية الطباق والجناس والتصوير وظهرت في هذه القصيدة آثار أخرى مختلفة للثقافات الإسلامية والعربية واليونانية[٢]. وهناك نماذج كثيرة أعرضنا عن ذكرها خوف الإطالة.

المدح وإدخال البديع

توجد في تلك القصيدة أيضا الموضوعات الجمّة التي ترتبط بالبديع لأنه يتعمّد استعمالها كثيراً في أشعاره المدحية و لهذا صار مشهورا بإدخال هذا الفن في الشعر العربي بشكل واسع، حيث يقول مثلاً: «في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب» من قوله الذي مرّ أعلاه، حيث استخدم صنعة الجناس أو التجنيس. ويقول في البيت

١- تاريخ عرب، ص ٤٨٢.

٢- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص٢٥٩.

الثاني: «بيض الصفائح لا سودُ الصحائف»، حيث استخدم صنعة التضاد بين البيض والسود وصنعة الجناس بين الصفائح بمعني السيف العريض والصحائف بمعني القراطيس المكتوبة.

وقال من قصيدة يمدح فيها خالد بن يزيد الشيباني: [الكامل]

وغَدتْ بُطونُ مِنى مُنىً من سَيْبهِ   وغَدتْ حَرَىً منهُ ظُهورُ حِراءِ[1]

فبين (مِنى ومُنىً) جناس ناقص، حيث الأولى يقصد بها منطقة مِنى المعروفة في مكة والتي هي من شعائر الحج، ويقصد بالثانية جمع مُنية. وبين (حَرَىً وحِراءِ) جناس ناقص كذلك، حيث يقصد بالأولى مسكونة ويقصد بالثانية جبل حِراء بمكة. وقال يمدح عمر بن مالك بن طوق التغلبي، ذاكراً قوم الممدوح: [الكامل]

هم رهطُ مَن أمسى بعيداً رهطُهُ   وبنـــو أبي رجلٍ بغيرِ بني أبِ[2]

فقد مدحهم بالكرم والأريحيّة والضيافة وإشراق الوجه والبشر، كلّ ذلك كنايةً وليس تصريحاً، بحيث يُشعرون الغريب أنّه بين قومه وأهله.

وقد استمدّ في مدائحه من قانون الأضداد في وصف الممدوح، حيث نرى هذه الظاهرة واضحة في الأبيات التالية حول الصداقة التي عبّر عنها تعبيراً بديعاً وضمّنها المعاني اللطيفة: [الكامل]

١- أبو تمام، ديوان، شرح الخطيب التبريزي، ج١، ص١٧.

٢- المصدر نفسه، ص٦٥.

إن يُكدِ مُطرَّفُ الإخاءِ فإنّنَا نَغدو ونَسري في إخاءٍ تالِدِ
أو يَختلفْ ماءُ الوصَالِ فماؤُنا عذبٌ تحَدّرَ مِن غمامٍ وَاحِدِ
أو يَفتَرِقْ نسَبٌ يؤلِّفْ بينَنَا أدبٌ أقمنَاهُ مُقامَ الوَالِدِ[١]

يقول الشاعر لصديقه علي بن الجهم الشاعر المعروف: إن تكن الأخوة الحديثة عقيمة عديمة الثمار فإنّ صداقتنا ليست كهذا الضرب من الصداقة، بل هي أخوّة و صداقة قديمة لا تفسد ولا تزول لأنّها معنا بكرة وأصيلاً، ليلاً ونهاراً. وإن يتغير طعم الوصال ولونه في بعض الأحيان فإنّ ماء وصالنا طيب مستساغ لأنّه نزل من سحابة واحدة. وإذا لم نكن من أصل واحد ولا يجمع بيننا نسب فإنّ الأدب الذي نمتلكه والمقدرة الأدبية التي نتحلّى بها هما الرباط المقدس الذي يجمع بيننا بدل الوالد والنسب والأصل الواحد.

نشاهد في الأبيات المذكورة أعلاه الأضداد بين كلّ مصراعين فنشاهد في البيت الأول "مطرّف الإخاء" بمعنى حديثه و"الإخاء التالد" بمعنى قديمه، و"نغدو ونسري"، أي نذهب غدوةً ونعود ليلاً، وفي البيت الثاني "يختلف ماء الوصال" و"ماؤنا من غمام واحد"، وفي البيت الثالث "يفترق نسب" و"يؤلّف أدب"، و هذه ظاهرة مبتكرة في المدح. وقد استخدم الاستعارة المكنية كثيراً كأسلوب لتجسيم أسماء المعاني ورسم الصور الحيّة الناطقة، وخاصة في كلمة "الإخاء" في شطري البيت الأول وكلمتي "نسب" و"أدب" في البيت الثالث وهاء الضمير في "أقمناه".

١- أبو تمام، ديوان، شرح إيليا الحاوي، ص١٧٢-١٧٣. وقوله: يُكد يقلّ ببلوغ الغاية. قال في المعجم الوسيط أكدى الحافر بلغ الكدية فلا يمكنه أن يحفر وافتقر بعد غنى والمعدن كدي والعام أجدب وفلاناً عن الشيء رده عنه.
والطريف الطيب النادر و الحديث المستحسن والمستفاد من المال حديثاً ويقابله التليد أو التالد (ج) طرف وطراف. وغدا غدوّاً ذهب غدوة وذهب وانطلق يقال اغد عني وعليه غدوا وغدوا وغدوة بكر ويقال غدا إلى كذا أصبح إليه. وسرى الليل سرياً وسراية وسرى مضى وذهب وفي التتريل العزيز (والليل إذا يسر) ويقال سرى الهم والليل وبه قطعه بالسير ويقال سرى بفلان ليلاً جعله يسير فيه. واختلف الشيئان لم يتفقا و لم يتساويا.

مزج المدح بالطبيعة

لقد ربط أبو تمّام ربطاً جيّداً بين شخصية الممدوح والطبيعة بشكل عام، كما في الأبيات التالية التي يمدح فيها عبد الملك الزيات: [البسيط]

ألوَى بصبرِكَ إخلاقُ اللّوَى وهَفَا   بلُبِّكَ الشوقُ لمــا أقــفرَ اللّبَــبُ
خفّتْ دموعُك في إثرِ الحبيبِ لدُن   حفّت منَ الكُثُبِ القُضبانُ والكُثُبُ
مِن كُلّ ممكورَةٍ ذابَ النّعيمُ لــها   ذَوبَ الــغَمامِ فمُنهَلٌّ ومنــسَكِبُ[1]

يقول في البيت الأول: أهلك شدة صبرك الخراب الذي طالعتَهُ، وأثار شوقك وحزنك عند رؤية منازل أرويّة مقفرةً من أهلها. و في البيت الثاني يقول: إنّ دموعك صاحبت الأحبة عند ذهابهم و قد قرن خصورهن بالأغصان وأردافهنّ بالكثبان فالقضبان كناية عن القدود و الكثيب كناية عن الأرداف.

مدح شعره ثمّ إهداؤه للممدوح

لقد أنشد أبو تمّام أشعاراً مدح فيها كلامه و شعره ثمّ أهداها إلى الممدوح. وقد كانت هذه القضية من أروع إبداعاته التي تتبعها الشعراء الذين كانوا بعده، كالمتنبي، نحو قوله من قصيدة يمدح فيها المعتصم: [الكامل]

١- أبو تمام، ديوان، شرح الخطيب التبريزي، ج١، ص١٣١- ١٣٢. وقوله: ألوى بصبرك، يقال: «ألوى بالشيء» إذا ذهب به وأهلكه و «اللِّوى» مستدّق الرّمل و «اللَّبَب» نحو ذلك و ربما قالوا (اللّبب» مقدم الكثيب و قد يعبّرون عن :اللوى واللبب» بمنقطع الرّمل، و ذلك كله متقارب في الحقيقة. وأخلق الثوب و الجلد و غيرهما بلي ... والسائلُ ماءَ وجهه بذله في السؤال. وهفا في المشي هفوا وهفوانا أسرع وخف فيه ... والنفس إلى الشيء حنت واشتاقت أو طربت والقلب خفق. واللبُّ من كل شيء خالصه وخياره ونفسه وحقيقته ولبُّ الجوز واللوز ونحوهما ما في جوفه والعقل (ج) ألباب. وخفّ الشيء خفا و خفة قل ثقله ... وإليه خفا و خفة و خفوفا أسرع و نشط وعن المكان ارتحل مسرعا فهو خف و خفيف. وحفّ الشيء حفا و حفافا استدار حوله و أحدق به و يقال حف الشيء بالشيء و حوله و من حوله و يقال أيضا حف الشيء بالشيء. والقضيب الغصن والغصن المقطوع وشريط طويل ممدد من الصلب تسير عليه القطر (محدثة) والسيف القاطع (ج) قضبان (الممكورة) المرأة ذات الساق الغليظة المستديرة الحسناء. وانهل المطر هل ويقال انهل الدمع تساقط وانهلت السماء نزل مطرها وانهلت العين تساقط دمعها. وانسكب انصب.

فالأرضُ دارٌ أقفَرَت مَا لَم يكُن مِن هــاشِمٍ رَبٌّ لِــتلكَ الــدارِ
سُوَرُ القُرانِ الغُرِّ فيــكم أنزِلَت ولَــكُم تُصَاغُ محاسنُ الأشعَارِ [١]

يقول في الأشعار المذكورة إنّ الأرض كلها كدار خلت من الناس والماء والأشياء الأخرى ما لم يكن فيها سيد من قوم بني هاشم يحكمها، حيث إنّ آيات القرآن الكريم وسوره الشريفة قد نزلت في تلك القبيلة فلهذا تُصاغ لكم أفضل الكلمات وأتمّ المعاني على هيئة مخصوصة في أشعار جميلة حسنة، و مراد الشاعر بالأشعار الحسنة الجميلة (محاسن الأشعار) هي الأشعار التي أنشدها بنفسه. فيكون بذلك قد مدح كلامه، حيث يقول إنّ تلك الأشعار هي من أحسن الأشعار التي جعلتُها خاصة لكم و هذا قول بديع ومبتكر في المدح. وقد استفاد الشاعر من الاستعارة المكنية في قوله (ولكم تُصاغ محاسنُ الأشعار)، حيث شبّه (محاسن الأشعار) بحلية ونفسَهُ بصائغ لتلك الحلية لرسم صورة جميلة بحذف المشبه. وفي (تُصاغ) استعارة تبعية. و(محاسن الأشعار) تركيب إضافيّ من باب إضافة الصفة إلى موصوفها.

وقد تأثربه المتنبي في مدائحه، حيث يقول، مثلاً، في مدح سيف الدولة:[الطويل]

لكَ الحمدُ في الدّر الذي ليَ لفظُهُ فإنّك معطيــهِ وإنّيَ نــاظمُ [٢]

يريد المتنبي بالدّر شعره و يقول المعاني لك بأفعالك الكريمة و أنظمها بنفسي فاللفظ لي و لهذا أحمدك على هذا. فالمتنبي مدح كلامه بارزا كما في البيت و أهداه إلى ممدوحه سيف الدولة و مدحه أيضا و في مثل هذا يقول ابن الرومي أيضا: [الوافر]

ولا تبنُوا مقــالَ الإفكِ فيــهِ فليسَ لمَا بَنَي اللهُ انهدامُ
مَنحتُك مِن حُلي الشعرِ عقداً غَدا لَك درُّه ولِي النّظامُ [١]

١- أبوتمام، ديوان، ج١، ص٣٤٢. وقوله:أقفرت خلت. والقران هو القرآن، حذف الهمزة منه تسهيلاً.الغرّ:البيض.
٢- المتنبي، ديوان، ج٢، ص١٠٢٨.

يقول الشاعر في مدح الممدوح: ولاتسعوا للافتراء على شخصيته لأنه من أبنية الله و لهذا لا يكون لها انقضاض فأنت لاتستطيع أن تهدمها. ويقول في البيت الثاني: أنا أعطيتك الشعر الجميل كالزينة وكالحُلي التي تزيّن جيدک وتُحلّي رقبتک على شكل قلادة معجبة، حيث صار لك لؤلؤه الجميل ولي منه الخيط الذي ينتظمه ويقوّمه.

فابن الرومي، حين مدح ممدوحه اعتبر شعره من أحسن الأشعار و وصفه بالحُلي التي يزين بها الممدوح نفسه وهذه الأشعار المدحية كلّها من قبله وهو قوامها وبيده نظمها، ولولاه لما انتظمت ولانفرط عقدها وتناثرت حبّتها. وقد رأينا كيف أنّ الشاعر بعد مدح كلامه وافتخاره به، كيف أهداه إلى ممدوحه، فهذا دليل آخر على تأثّر ابن الرومي بمدائح أبي تمام لأنّ هذا الفن من إبداعاته الطريفة في العصر العباسي.

الملاءمة بين المدح والممدوح

يقول أبو تمّام من قصيدة مدح فيها ابن الزيات، الكاتب المشهور ووزير الدولة العباسية: [الطويل]

لكَ القلمُ الأعلى الذي بشَباتِهِ   تُصابُ مِن الأمرِ الكُلَى والمَفاصلُ[٢]

فقد "الكُلَى والمفاصل" كناية عن المَقاتل و المعنى: إنّ لك من البلاغة ما تجهز به على مشكلات الأمور. فهو يقول في البيت: بأن قلمه لشدته وحدّته يقطع الأمور المعقّدة ويفصلها كما أنّ السيوف الماضية تقطع الكلى و المفاصل دون بُطء ، يعني أنّ قلمه قوي لأنه يستطيع أن يكتب على أفضل وجه ويصدر أوامر مهمة و يرسلها إلى سائر كبار الدولة في أرجاء القطر و عليهم أن يطيعوا فرامينه المكتوبة

١- ابن الرومي، ديوان، شرح أحمدحسن بسج، ج٣، ص٢٨٣- ٢٨٤.

٢- أبو تمّام، ديوان، شرح الخطيب التبريزي، ج٢، ص٥٧.

المفروضة و الشاعر يلائم بين القلم وشخصية الممدوح لأنّ ابن الزيات كان كاتبا مشهورا في ديوان الحكم إضافة إلى وزارته فبهذه المناسبة استعمل الشاعر كلمات تناسب الكتابة والوزارة و جعل «الكُلَى» و «المفاصل»مثلا لحقائق الأشياء و أصل ذلك أنّ الضارب إذا إصاب المفصل بلغ ما يريد من المضروب وأنّ الرامي إذا أصاب كلية القنص فقد أثبته ولولا سرّ هذه الأقلام لما انتظم أمر الملك فإذا مدح كاتبا مشهوراً مثل ابن الزيات نوّه بأدبه وبلاغته وقدرته على خلق الألفاظ و المعاني الجيدة.

المبالغة في الوصف

لقد حول أبو تمّام الوصف في المدح إلى ملاحم كبرى جسّم فيها بطولات الممدوحين وتكلّم عن أيامهم وشخّصها بشكل خطابي، نحو: [البسيط]

فتحُ الفتوحِ تعالى أن يُحيطَ بِهِ نظمٌ منَ الشّعرِ أو نثرٌ منَ الخُطَبِ
فتحٌ تفتّحُ أبوابُ السَماءِ لَه وَ تَبرزُ الأرضُ في أثوابِهَا القُشُبِ
يا يومَ وقعةِ عمّوريّةَ انصرَفت منكَ المُنى حُفّلاً مَعسُولَةَ الحَلَبِ[1]

ففي فتح الفتوح الذي لم يُرَ فتح مثله «تبرز الأرض» مثل لتعظيم الفتح و مسرّة أهل الإسلام و «تفتّح أبواب السماء» أي بالغيث و الرّحمة ويقول في الأبيات المذكورة بأنّ الأشخاص لا يستطيعون أن يصفوه كما هو لأنّ هذا الفتح، فتح له كلّ ما يشاء وهذا الوصف شبيه بملحمة قصيرة و في «يا يوم....» إتسع في النداء حتى كأنه خاطب يوم وقعة عمورية لجلاله عنده و«حُفّل» هاهنا مستعار للمني و «الحلب» كذلك و لهذا نحن امام يوم كبير الذي شخّصه الشاعر بشكل معجب و يقول إن ما كنّا نتمنّي و نريد حصوله في هذا إلىوم من الانتصارقد حصل و

١- أبو تمّام، ديوان، شرح الخطيب التبريزي، ج١، ص٣٥.

عادت الاماني كأنها نياق مكتنزة اللبن مزج لبنها بالعسل و قلّما نجد هذه المعاني الطريفة بشكل منظم غير هذا الشاعر.

النتيجه

شاع المدح في العصر العباسي الثاني بسبب عوامل مختلفة، منها: التكسّب وخشية الفقر وطلب المجد والتقرّب إلى الخلفاء و غير ذلك. ولكنّنا يمكننا أن نعتبر أبا تمام شاعراً مبدعاً في هذا الفن من بين الشعراء الكثيرين لما أبدعه من الأمور التالية التي توجد في مدائحه بشكل منسجم. فقد استطاع أبو تمام أن يحوّل قصائده التي مدح بها المعتصم واصفاً شجاعته وشجاعة جنوده، استطاع أن يحوّلها إلى ملاحم نابضة بالحياة والحركة لما بثّ في جماداتها من روح الحياة فجعلها متحرّكة ناطقة. وكما كان يبالغ في مدحه كان يبالغ في وصفه كذلك، فقد كان وصّافاً ماهراً، بل رسّاماً مصوّراً يعتني بلوحاته أيّما اعتناء وهو لا ينسى في رسمه للطبيعة ممدوحه رابطاً بينه وبين الطبيعة ليمنّ في نهاية المطاف على ممدوحه، بشكل غير مباشر طبعاً، أنّه مدحه بأفضل ما يكون من الأشعار وليتخذ من ذلك ذريعة ليمدح شعره ويُعلي من شأنه أكثر من إعلاء شأن الممدوح.

وفي نهاية المقالة، نرجو أن نكون قد وُفّقنا في تحقيق الهدف المنشود، ولا ندّعي أنّنا قد أتينا على كافّة جوانب الموضوع، فهي كالثلج الطافي على سطح الماء؛ ما خفي منه أكثر بكثير مما ظهر.

المصادر و المراجع

١. الآمدي، الحسن بن بشر. الموازنة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: المكتبة العلمية، د.ت.

٢. ابن خلكان، أبو العباس. وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دارالثقافة، د.ت.

٣. ابن الرومي، أبو الحسن. ديوان ابن الرومي، شرح: أحمد حسن تستج، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٤م.

٤. ابن العماد، عبد الحي. شذرات الذهب، بيروت: دارالكتب العلمية، د.ت.

٥. ابن منظور، لسان العرب،

٦. أبو تمّام، حبيب. ديوان أبي تمام، شرح: الخطيب التبريزي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٢م.

٧. أبو تمّام، حبيب. ديوان أبي تمام، شرح إيليا الحاوي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٨١م.

٨. الأصفهاني، أبو الفرج. الأغاني، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٩٢م.

٩. البستاني، بطرس. أدباء العرب، بيروت: دار نظير عبود، د.ت.

١٠. حتي، فيليب خليل. تاريخ عرب، ترجمة أبو القاسم پاينده، آگاه، ط٢، ١٣٦٦ هجري شمسي (بالفارسية).

١١. الحصري،أبوأسحاق. زهرالآداب، شرح:زكي مبارك، بيروت:دارالجيل، ط٤، د.ت.

١٢. الحموي ياقوت. معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دارالثقافة، د.ت.

١٣. الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمّام، تقديم وتنظيم راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م.

١٤. الصولي، أبوبكر. أخبار أبي تمام، قدّم له: أحمد أمين، بيروت: مركز الموسوعات العلمية، د.ت.

١٥. ضيف، شوقي. الفن ومذاهبه في الشعر العربي، مصر: دار المعارف، ط٧، د.ت.

١٦. الفاخوري، حنّا. الجامع في تاريخ الأدب العربي، بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٨٦م.

١٧. العسكري، أبو هلال. الصناعتين، تحقيق: مفيد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٣، ١٩٨٩م.

١٨. المتنبي، أبو الطيب، ديوان المتنبي، شرح عبدالرحمان البرقوقي، دارالفكر، ٢٠٠٢م.

١٩. مجمع اللغة العربية في القاهرة. المعجم الوسيط، الطبعة الخامسة، ١٤١٦ هـ - ١٣٧٤ش، مكتب نشرالثقافة الإسلامية، طهران.